بين أروقة الفلاسفة

للدكتور أحمد فؤاد الإهوانى

أجمع المؤرخون على أن الفلسفة لم تظهر إلا فى اليونان ، فكانت بذلك معجزة كبرى ، قامت على أساسها الحضارة الحديثة . وقد اعترف العرب بفضل اليونان على الفلسفة ، فذكر صاعد الأندلسى فى كتابه « طبقات الأمم » ما يفيد أن اليونان اختصت بالفلسفة دون غيرها من الأمم القديمة . ثم إن لفظة « الفلسفة » عُرّبت ودرجت فى اللسان العربى ، وحدثنا الفارابى أنها مشتقة من مقطعين « فيلا » بمعنى الإيثار ، و « سوفيا » بمعنى الحكمة ، فالفلسفة هى إيثار الحكمة . ويُرْوى أن فيثاغورس هو أول من قال : لست حكيما ، ولكنى مؤثر الحكمة . يريد بذلك أنّ الحكمة مخصوصة بالآلهة ، أما هو فإنه إنسان لا يوصف بما تتصف به الآلهة ، ولكنه يقتبس من فيض علمها .

هذه هى أول صيحة لتحرير العقل البشرى من سلطان الأساطير الدينية التى شاعت فى الأمم القديمة جميعاً ، وفى اليونان كذلك ، حيث كان للشعب ، بل لكل مدينة إله خاص ، ثم تأثروا بديانات الشرق وآلهتهم . واستطاع هوميروس فى الإلياذة والأوديسية ، وهزيود فى قصيدته عن نسب الآلهة ، وأصحاب النحلة الأورفية فى عقائدهم وطقوسهم أن يحفظوا للأجيال ضروباً من المسائل الفلسفية تختص بأصل العالم وخلق الكائنات ، وخضوع الإنسان للقضاء والقدر ، وخلود النفس وتناسخها وغير ذلك من الموضوعات التى تعد من صميم الفلسفة ، ولكن علاجها كان بطريقة أسطورية ميثولوجية .

وتعد محاولة المدرسة الأيونية وعلى رأسها طاليس ، وهو زعيم الطبيعيين الأولين ، أول محاولة لتحرير الفلسفة العقلية من أثواب الدين . ومع ذلك بقيت تعاليم طاليس وتلاميذه من بعده متأثرة أشد التأثر بالدين . ولا يزال التاريخ يحفظ عبارته المشهورة « العالم مملوء بالآلهة » ، مما يدل على أنه لم يستطع أن يتخلص من ربقة الأساطير تخلصاً تاماً . وكذلك كان الشأن فى فيثاغورس صاحب المدرسة

الرياضية ، فإن الأعداد والأشكال الهندسية عنده كانت لها دلالات خلقية ونفسانية وروحانية ، فضلا عن أخذه بالنحلة الأورفية فيما ذهبت إليه من قصة خلق العالم والتناسخ .

ولكن صيحة التحرير كان لها أثرها ، واشتعلت نار الثورة على الدين حتى علا لهيبها فى القرن الخامس قبل الميلاد فاكتوى بها سقراط شيخ الفلاسفة ، ورأس الثورة الثانية فى الفلسفة التى أنتجت للحضارة عَلَمين من أخلد أعلامها وهما أفلاطون وأرسطو .

* * *

ظهرت الثورة الأولى فى خفر واستحياء ، وظلت فى دائرة الحكماء متعالية عن أسماع الشعب ، متخفية عن الجمهور ؛ ولم يكن طاليس صاحب مدرسة بمعنى الكلمة ، بل كان له صاحب أو تلميذ هو أنكسمندر ، واتخذ هذا انكسمانس تلميذاً له وكان هرقليطس يعيش فى عزلة شديدة ، على حين ظلت الجماعة الفيثاغورية سرية إلى أن افتضح أمرها بعد قرنين من الزمان . يضاف إلى ذلك اتجاه أولئك بالفلسفة وجهة طبيعية يدرسون الفلك والرياضة .

فلما جاء سقراط أحدث فى تاريخ الفلسفة حدثاً بالغ الأثر ، فهو — كما قال شيشرون — الذى « أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض » . ومما يؤثر عن سقراط أنه اشتغل فى أول حياته بالفلسفة الطبيعية ، وقد صوره أرستوفان شاعر الملهاة المعاصر له فى تمثيلية « السحب » يجلس فى سلة معلقة فى الهواء ليكون أقرب إلى السماء ، ولأن الهواء جوهر الأشياء جميعاً . ولكنه عدل عن ذلك ونظر فى النفس الإنسانية ، واتخذ الشعار الموجود فى معبد دلفى : « اعرف نفسك » ، شعاراً لفلسفته . ثم التمس المعرفة من باطن النفس ، والتأمل فيها ، فتنكشف للمرء سائر المعلومات . ولذلك دعا الناس ، عامتهم وخاصتهم ، إلى النظر ، وكان يحادث الشباب فى الأزقة والأروقة والملاعب والبساتين ، وفى كل مكان ، لأن الفلسفة ليس لها مكان ، بل مكانها الصحيح باطن النفس ؛ ولم يكن يعلّم غيره كما كان يفعل السفسطائيون ، أو الفلاسفة السابقون ، بل كان يدعو تلاميذه أو الذين يحاورهم أن يهتدوا بأنفسهم بعد النظر فى أنفسهم إلى الحقيقة . فكانت هذه النزعة هى الثورة الثانية التى جعلت من الفلسفة بضاعة ديمقراطية ، بعد أن ظلت أرستقراطية ووقفاً على فئة خاصة ممن يسمون أنفسهم فلاسفة أو حكماء .

وقد أحدثت تعاليم سقراط ، أو الأصح نزعة سقراط ، ثورة فكرية شديدة حتى خشى معاصروه على سلطانهم وأنظمتهم ، فقدموه إلى المحاكمة متهمين إياه بإفساد عقول الشباب ، وإنكار آلهة اليونان ، والقول بآلهة جديدة . وأعدم سقراط ، ولكن فلسفته ظلت حية باقية .

التمس سقراط أصل الجزئيات فى الحد الكلى المعقول . وسار أفلاطون على نهجه ، وسمى المعقولات الكلية « مُثُلا » وتدرج بها حتى بلغ الحق والخير والجمال ، وجعل هذه الثلاثة أصل جميع الموجودات التى تشارك فيها أو تعد أشباحاً لها . ونقد أرسطو أستاذه فى نظرية المثُل ، وذهب إلى أن الموجودات الطبيعية مركبة من الهيولى والصورة ؛ والصورة الأرسطية إن هى إلا المثال الأفلاطونى أنزله من السماء إلى الأرض . والتمس أرسطو العلم الصحيح فى « الماهية » المركبة من الأجناس والأنواع والفصول الثابتة . فالإنسان حيوان ناطق ، وهذه هى « ماهية » الإنسانية ، ويتبعها « وجود » زيد وعمرو وسائر أفراد النوع الإنسانى . أى أن أصل « الوجود » هو « الماهية » .

* * *

وظلت البشرية تتبع مذهب المعلم الأول عشرين قرناً من الزمان ، ونقلت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية ، ثم نقلت مرة أخرى إلى الغرب ، وظل الشراح والفلاسفة يتناقشون فى أمر الكليات أهى لفظية أم واقعية ، بمعنى أن قولنا الجسم ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، وأشباه هذه الكليات ، أهى مجرد ألفاظ أم لها وجود فى الواقع . وأصبحت الفلسفة « مدرسية » تقتصر على شرح أرسطو . حتى إذا كنا فى القرن السابع عشر بعد الميلاد قامت ثورة عنيفة على أرسطو ومنطقه ، على رأسها بيكون فى إنجلترا ، وديكارت فى فرنسا . وهما متشابهان من وجه ، مختلفان من وجه آخر . فكلاهما طعن فى أرسطو ، ونقده نقداً شديداً ، وحاول أن ينال من القياس الأرسطى . وكلاهما حاول أن يطلع بمنهج جديد . أما بيكون فقد وضع أساس المنهج التجريبى الذى أثمر على مر الزمن كشف العلوم الطبيعية التى ننعم بها فى الوقت الحاضر . أما ديكارت فهو صاحب المنهج العقلى الرياضى ، مما سجله فى كتابه « مقال عن المنهج » الذى جاء فى استهلاله : أن العقل السليم هو أكثر الأشياء توزعاً بين الناس بالتساوى . فكانت هذه الصيحة الفلسفية الفكرية دعامة من دعامات الثورة الفرنسية السياسية التى قامت تطالب

بالحرية والإخاء والمساواة . وبلغ من ثورة ديكارت على أفكاره أنه ألقى بها جميعاً خارج عقله ، وأخذ يفحصها من جديد فكرة فكرة ، فلا يقبل إلا ما كان واضحاً جلياً ، حتى لقد شك فى وجود نفسه ، ولكنه انتهى إلى إثبات أول قضية لا ريب فيها وهى : « أنا أفكر إذن أنا موجود » . ثم شيد بناء الفلسفة من جديد على أساس هذه القضية ، التى تستمد الوجود من الفكر .

* * *

فإذا كنا فى القرن الثامن عشر وجدنا « كانط » صاحب المذهب النقدى يحدث انقلاباً جديداً ، سماه «ثورة» . قال فى المقدمة الثانية التى كتبها بمناسبة طبع « نقد العقل الخالص » ما فحواه : كان الناس يسلمون حتى الآن بأن جميع معرفتنا يجب أن تصدر عن الأشياء ، ولكن كل الجهود التى بذلت لاستخراج أحكام أولية بطريق المعانى الكلية من هذه الأشياء ذهبت هباء . أفلا نكون أسعد حالا فى مشكلات الميتافيزيقا إذا فرضنا أن الأشياء تصدر عن معرفتنا ، مما يتلاءم مع الرغبة فى معرفة أولية لهذه الأشياء . . . فالأمر هنا هو بالضبط مثل فكرة كوبرنيق الذى رأى استحالة تفسير حركات السماء مع التسليم بأن النجوم تدور حول شخص الملاحظ ، فذهب إلى أن الأدنى إلى التفسير الصحيح هو القول بأن الملاحظ هو الذى يدور حول النجوم الثوابت .

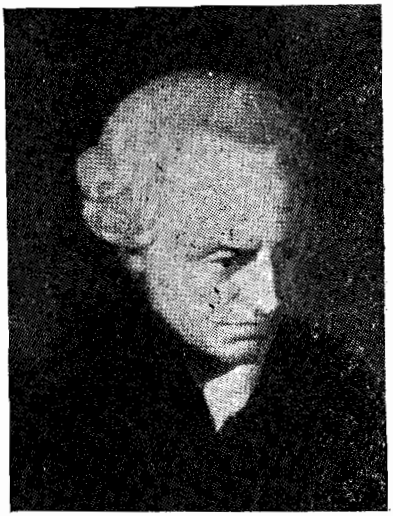

كانط فى العقد السابع من عمره

هذه على التقريب عبارات كانط التى يشبه فيها ما فعله فى الفلسفة بما فعله كوبرنيق فى علم الفلك . فقد كان يخيل إلى سائر الفلاسفة أن المحسوسات الخارجية هى مصدر المعرفة ، وأن إدراكنا إياها بالحواس يفضى إلى معرفتها . ونظرية كانط أننا نعرف الأشياء الخارجية خلال أنفسنا ، فنسبغ عليها طابعاً إنسانياً خاصاً ، وقد تكون الأشياء فى ذاتها وفى مظهرها على غير هذا النحو . وأول منظارين نطبعهما على

الأشياء الخارجية، هما الزمان والمكان. وأضاف إلى الزمان والمكان « مقولات » عقلية أولية أخرى يخلعها العقل على الأشياء الخارجية حين يدركها ، أو بمعنى آخر لا يمكن أن ندرك الأشياء الخارجية إلا من خلال هذه المقولات العقلية ، فنصبح أشبه بمن يضع على عينيه عوينات سوداء فيرى الأشياء ملونة بهذا اللون . بذلك أصبح العقل البشرى هو المحور الذى تدور حوله الأشياء . ويترتب على ذلك أننا إذا شئنا بلوغ المعرفة الصحيحة فينبغى أن ننظر أولا فى العقل البشرى لنتبين كيف يتكوّن .

وخلص كانط من هذه الثورة إلى نتيجة أخرى فى غاية الأهمية ، تقلب مذاهب القدماء ، الذين كانوا يعتقدون فى إمكان الوصول إلى معرفة جوهر الموجودات أو أصلها أو ماهيتها . وتقرر تلك النتيجة أنه فى ظل الفلسفة الكانطية ، لا يمكن العقل البشرى ، أو ليس فى حدود المعرفة البشرية أن تعرف إلا « الظواهر » أما البواطن أو الأشياء فى ذاتها (Noumènes) ، فأمر لا يمكن .

ولكن تلامذة كانط لم يقفوا عند الحدود التى التزمها ، فزعم هيجل أن فى استطاعته بلوغ « المطلق » ، وابتدع طريقته فى الجدل التى تتركب من الانتقال من الدعوى إلى نقيضها ثم المركب منهما ، وطبق هذا الجدل على الجماد والأحياء والتاريخ . وظهرت المثالية الألمانية قوية عنيفة تتمثل فى نيتشه وشوبنهور وغيرهما .

* * *

وفى العصر الحاضر ثورة شديدة على الفلسفة القديمة . تلك هى الوجودية. وهى ثورة بمعنى الكلمة ، تشبه الانقلاب الذى حدثنا عنه كانط ، ذلك أن الفلسفة منذ عهد أرسطو كانت تقدم الماهية على الوجود ، كما رأينا ، وكانت تفسر وجود الموجودات بأنها مستمدة من تلك الماهية الكلية ، وقد رأينا كذلك كيف استمد ديكارت وجوده من الفكر .

أما الوجودية فإنها لا تحفل بالماهيات ، ولا بالأفكار المجردة ، ولا بالروح الرياضية ، بل كل همها ينصرف إلى ما هو موجود بالفعل ، أو إلى « وجود » الموجودات . ولا ينبغى أن نخلط بين المذهب الوجودى وبين الفلسفة التى تعتمد على المحسوسات والجزئيات لترتفع منها إلى الكليات . ولا ينبغى كذلك أن نخلط بين الوجودية وبين مذهب برجسون الذى يريد أن يتصل اتصالا مباشراً بالشعور. لأن الوجودية تعتمد على الواقع المحسوس ، وعلى معطيات الشعور ، ولكنها تتخطى

هذا كله إلى شيء أبعد من ذلك . ونحن فى ظل الفلسفة القديمة الموروثة منذ أفلاطون وأرسطو ننظر إلى الأفراد الجزئية كهذه الشجرة وتلك ونحاول أن نربط بينها فى ضوء « النوع » فنفقد فى سبيل ذلك كثيراً من خصائص كل فرد ومميزاته . إننا نُقبل على الأشياء ونحن مجهزون بمقولات عقلية ندرك الأشياء من خلالها . والأمر كذلك عند تأمل حياتنا الباطنة . أما الوجوديون فإنهم يسلكون سبيلا مختلفاً ، إنهم يريدون الاتصال بالحياة قبل أن يتدخل العقل فيفرض على الأشياء والحياة منطقه الذى لا تعرفه الحياة . وفى ذلك يقول كيركجارد ، وهو من أعلام الوجوديين : « بدل أن يفهم الإنسان المحسوسات فهماً مجرداً ، يجب على الوجودى أن يفهم المجرد فهماً محسوساً » . وهذا هو السر فى أن تفكير الوجوديين يصاغ فى الأغلب فى صورة القصة والرواية والتمثيلية ، لأنها تصف هذا الواقع الحى الغريب الذى ينبع مباشرة عن الحياة .

ليس الوجود فى فلسفتهم صفة تضاف إلى الأشياء ، ولكنه هو الواقع الأول ، وهو الأساس الذى تستمد منه سائر الصفات الأخرى ، ولذلك عابوا على ديكارت قوله : « أنا أفكر إذن أنا موجود » ، وقالوا : كان ينبغى أن يعكس القضية .

ويهتم الوجوديون اهتماماً شديداً بقضية الوجود ، لا عند الكائنات الثابتة كالحجر ، بل عند الكائنات الحية ، التى يتنقل وجودها من حال إلى حال ، أو كما ذهب أرسطو من القوة إلى الفعل . وهم لا يصفون بالوجود من بين سائر الكائنات الحية إلا الإنسان فقط ، لأنه « حر » فى « اختيار » الطريق الذى سوف يكون عليه . بل إنهم ليذهبون إلى أبعد من ذلك فيزعمون أن بعض الناس فقط هم الذين ينعمون بنعمة « الوجود » على هذا المعنى الذى حددوه ، فيرى هيدجر ، وسارتر ، وجاسبرز وسائر أئمة الوجوديين أن الوجود الصحيح هو صفة مَنْ يختار سلوكه بحرية ، ومَنْ يصنع نفسه على هواه ، ومَنْ لا ينسج على منوال غيره كالعامة والدهماء .

كيف إذن ننتهى إلى الماهية عن طريق الوجود ؟

ماهيتنا هى ما نحن عليه . وهذه الماهية يبلغها كل منا باختياره ، بعد أن يوجد ، فالوجود سابق على الماهية .

ولكن الوجود يسبق الماهية عند الإنسان صاحب حرية الاختيار فقط ، أما الكائنات الأخرى ، لأنها تعدم الاختيار ، فإن ماهيتها أو نوعها أو صورتها

يتقدم على وجودها ، كحبة القمح التى تحمل فى طياتها إذا وضعت فى الظروف الملائمة نبات القمح . فهى فى نضجها وازدهارها وإثمارها تخضع لضرورة محتومة . أما الإنسان الحر فإنه يستطيع أن يتخلص من هذه الحتمية الضرورية ، وأن يشق لنفسه ما شاء من طريق .

جملة القول أن الفلسفة الوجودية تهتم بالإنسان ، وهى إن كانت لا تنكر صلة الفرد بالمحيط الذى يعيش فيه وتأثره به ، إلا أن وجود العالم وما هو عليه يتوقف علينا ، وعلى موقفنا منه ، وهذا هو العالم الحقيقى . وهذا تفسير قولهم : إننا نخلق العالم الذى نعيش فيه .

* * *

تحدثنا عن الوجودية لجدتها وطرافتها ولأنها ثورة جديدة نعيش فيها الآن . وهى فى الواقع ثمرة هذا العالم المضطرب الأحوال منذ الحرب العظمى الماضية ، وما وقع على الإنسانية من كوارث وأهوال . فلا غرابة أن تظهر مثل هذه الفلسفة لتحاول فهم هذا العالم الغريب ، ولا غرابة كذلك أن تنحرف عن جادة الصواب ، وأن يخرج بها بعض أتباعها عن الاستقامة وما جرى عليه المألوف من السلوك القويم .

ولا نود أن نذكر فى هذا العرض السريع ، ثورات صغيرة قامت بين حين وآخر ، سواء فى الزمن القديم أم الحديث ، ولكنها لم تكن من القوة والسعة والانتشار بحيث تؤدى إلى آثار تغير من اتجاهات الفكر البشرى . ولا نود كذلك أن نذكر ثورات الخارجين على الفلسفة ، والطاعنين على شرعية وجودها ، فهؤلاء وأولئك إنما يضربون رءوسهم فى صخرة لا تتحطم ، ما دام فى الإنسان عقل يفكر ، ونهم للمعرفة لا يعرف للشبع حداً .

أحمد فؤاد الإهوانى